

سؤال اللغة في الكتابة السوسولوجية

ملخص:

تهدف هذه الورقة إلى تقديم لمحة عامة حول العلاقة بين اللغة والسوسولوجيا من خلال البحث في جوهر السؤال اللساني ضمن الكتابة السوسولوجية. وتدعو إلى ضرورة النظر في ممارسات الكتابة كممارسات سوسولوجية مقترنة برهان علمية نسق العلوم الاجتماعية، ومرتبطة بتجديد الحوار بين النظري والميداني في البحث السوسولوجي باعتباره الشرط النسقي والانعكاسي لرد الاعتبار للمنهج السوسولوجي. لذلك لا تجعل هذه الورقة هدفا لها تقديم نسق العمليات العامة لإنتاج النصوص السوسولوجية (الاختيار المعجمي، المفاهيمي، البناء النحوي، استراتيجيات الاقتباس....) ولا استنطاق المنطق المنهجي الناظم لها، وإنما فتح الباب أمام النقاش الاستيمولوجي حول راهنية التفكير العلمي في الكتابة السوسولوجية. لتوضيح هذه النقطة سنركز على دراسة موقع الكتابة السوسولوجية ضمن تاريخ الفكر السوسولوجي، وسنبحث عن الخيوط الناظمة للعلاقة بين اللساني والعلمي في اللغة السوسولوجية، في محاولة لبناء ضوابط عامة تنظم الكتابة السوسولوجية بالعالم العربي وتتجاوز الأبعاد الذاتية نحو رهان وحدة النسق المعرفي للعلوم الاجتماعية الكونية.

محمد الإدريسي

مدخل:

النص الأنثروبولوجي⁽²⁾؛ السوسولوجيا ورهان الكم والكيف...، يبدو أن السؤال الناظم لهذه التخصصات ظل مرتبطاً بالشروط الموضوعية لإنتاج كتابة علمية. يظل سؤال الكتابة العلمية إشكالاً مركباً ومعقداً ضمن حقل الإنسانيات/ الاجتماعيات، اختلفت الأجوبة عليه بحسب طبيعة البراديجمات المعرفية التي بنيت عليها المقاربات البحثية. لا تزال المرجعية الوضعية مؤثرة إلى حدود اليوم: بحسب هذا المنظور يعتبر النص العلمي بمثابة وسط شفاف للثوابت ولنقل التمثيلات الوافية عن عالم لا يثير، بحكم شفافيته، اهتماماً مشتركاً. لا تحتاج الكتابة العلمية إذاً لأن تكون مدروسة أو مفكر فيها، ولا متسقة، ولا لأن تُدرس وتُدرس. استناداً إلى هذا الرأي، يمكن أن نقر بوجود كتابة علمية طبيعية، شفافة، موضوعية... في حقل السوسولوجيا (Charmillot, 2010) ومختلف التخصصات الإنسانية والاجتماعية.

في إشارة إبستيمولوجية إلى الاتجاه البنوي/التفسيري/ التفهيمي، سنجد الجواب واضح وبديهي: تصبح طرائق إنتاج واستقبال النص العلمي مركزية في عملية تحليل شروط إنتاج المعرفة، والكتابة نفسها تُدرك كوسيلة أساسية لبلوغ المعرفة العلمية، ونقل وتصديق وسائل بنائها. بلغة أخرى، تصبح اللغة عملية بناء للمعرفة، ولا يمكن التفكير فيها إلا بكونها شكل من أشكال إنتاج المعرفة، أي كشكل من أشكال إنتاج الواقع، (Charmillot, 2010) وبالتالي شكل من أشكال إنتاج الظاهرة الاجتماعية وبناء الفهم العلمي

تحتل الكتابة - كعملية إعداد نص موجه إلى القارئ- مكانة مهمة في مسار عمل الباحثين والدارسين السوسولوجيين، نظراً لكونها تشكل السند الناظم لبناء الأشكلة والمفهمة والمحاكاة السوسولوجية. لا تستند الكتابة في حقل العلوم الاجتماعية على تقييم ومناقشة النصوص وإنما على إنتاجها وبناء نتائج البحوث الاجتماعية. ومع ذلك، فإن ممارسة الكتابة، والاختيارات المنهجية التي تقوم عليها أو الضوابط الإبستيمولوجية لأسلوب «style» النصوص السوسولوجية تظل غائبة ضمن النسق الانعكاسي لنهج العلوم الاجتماعية بعامة، ومغيبية عندما يتعلق الأمر بجمع أو معالجة المعطيات الميدانية (Dubois, 2005 : 208) المنظمة لبراديجم إنتاج المعرفة العلمية.

أولاً: تاريخ الكتابة السوسولوجية: ملاحظات إبستيمولوجية

انخرطت العلوم الإنسانية والاجتماعية، منذ نشأتها، في نقاشات علمية -وأحياناً إيديولوجية- مرتبطة بالشروط الإبستيمولوجية والمنهجية لإنتاج «نصوص معرفية ذات طابع علمي». نجد تجلي هذا الأمر في تاريخ مجموعة من التخصصات: السعي الإبستيمولوجي لعلم التاريخ نحو بناء كتابة أدبية للوقائع والأحداث التاريخية تؤسس لعلمية العلم التاريخي⁽¹⁾؛ اقتران نشأة الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا بتطور نظرية التطور الاجتماعي والبحث عن ضوابط علمية وكونية تحكم

ينشر الباحث نتائج بحوثه من أجل: نقل المعرفة، الانخراط في النقاشات العلمية، الدفاع عن مدرسة أو تيار معين، دحض نظرية معينة، الحصول على الاعتراف وبناء موقف مهني وأكاديمي في سياق مؤسسي معين (Jay , 113 : 1998).

إن «قائمة المنشورات» (الملف العلمي) تظل دليلاً ملموساً على حرفية عمل الباحث وأكاديمية مساره المهني (Copans , 182 : 94-1993)، وتلعب دوراً حاسماً في اختيار باحث شاب للانضمام إلى الهيئة التدريسية أو الحصول على دعم مادي ومعنوي لأبحاثه (Soudière , 1994: 115)، وهو الأمر الذي يفسر الاهتمام المتزايد بالكتابة في العلوم الاجتماعية.

لازم تاريخ الاهتمام بالكتابة في السوسيولوجيا ضعف الأعمال المهمة بسؤال الكتابة في العلوم الاجتماعية، حيث نجد سيطرة واضحة للكتابات الوسيطة، مثل: مذكرات التقصي والملاحظات، بين الإثنولوجيين والأثروبولوجيين، والمرتبطة بمؤشرات الكتابة المنهجية، لكن لم يتم تطوير نصوص علمية مؤسسية للبحث في قضايا الكتابة في حد ذاتها (Dubois 2005). أمام ضعف الاهتمام بتدريس إبستيمولوجيا الكتابة وإنتاج النصوص العلمية، نجد أنفسنا أمام فضاء خصب معرفياً وإبستيمولوجياً - خاصة بالوطن العربي - يشجع نسبياً على «التلصص» و«استراق السمع»⁽³⁾ لما يروج في أروقة العلوم الاجتماعية المعاصرة في ظل العودة القوية لسؤال الكم/الكيف والبحث المستمر

للحياة الاجتماعية. يظهر أن الباحث الاجتماعي مسؤول من الناحية الإبستيمولوجية والمنهجية عن إنتاج الفهم العلمي للاجتماعي «Le social»، بكل ما يطرحه الأمر من اختلافات ماكرو معرفية (الاختلافات الإبستيمولوجية بين الاتجاهات النظرية الكبرى) وميكرو منهجية (الصعوبات الذهنية المرتبطة بفهم الواقع الاجتماعي والتحديات الموضوعية المرتبطة بإسقاط وموقعة العدة الميتودولوجية).

لا يمكن فصل تاريخ التفكير في الكتابة في العلوم الاجتماعية عن تاريخ «الصراع» بين الإيديولوجي والإبستيمولوجي في إنتاج المعرفة في هذا الحقل نفسه. أولاً، تقتزن الكتابة بقضية مساءلة مسار تطور الفكر العلمي (في شكله الشمولي): ألا يعتبر الفكر حامل وناقل ومنتج للقيم، للإيديولوجيات في تقاطع دائم بين الاجتماعي والسياسي، الاقتصادي والثقافي؟ ثانياً، ترتبط الكتابة في العلوم الاجتماعية بإشكال كتابة العلم، أي البحث المتواصل عن علمية العلوم الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى الرغبة في السيطرة على النتائج النظرية والتجريبية لهذه العلوم سواء من طرف الباحث أو «الجماعات العلمية». ثالثاً، الكتابة جزء أساسي من النشاط الإبستيمولوجي والمنهجي للباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، فعندما نفعل مشروع إثنوغرافي أو أثروبولوجي نجد أنفسنا منخرطين في نشاط قوي من الكتابة (Kilani , 50 : 1994). رابعاً، يتم التعرف على الباحث من خلال كتاباته، ويتعرف عليه المجتمع العلمي، على مساره المهني والأكاديمي عبر الكتابة.

يُنتج نص الباحث من خلال كتابته أم من خلال جدية بحثه أم أصالة نتائجه؟ من المؤكد أن الإجابة الفورية هي: عبر جدية بحثه، ومن الممكن أن يسهم الشكل في قبول أو رفض الصيغة النثرية. هل يجب على الكتابة المثالية أو النموذجية في العلم أن تكون «شفافة» وفي خدمة النتائج؟ ولا نطلب من الباحث سوى نقل ما بني سابقاً؟ (, Charmillot 2010)

ثانياً: الكتابة السوسيوولوجية ورهان علمية اللغة السوسيوولوجية.

يؤكد الكثير من المؤرخين، الأنثروبولوجيين، السوسيوولوجيين والمحليين النفسانيين على أن الكتابة جزء لا يتجزأ من علمية بناء المعرفة (, Charmillot 2010). لكن، ألا يمكن اعتبار «النص» في العلوم الاجتماعية مجرد حشو لغوي يهدف إلى إنتاج الوهم، ويعزز اعتقاداً غامضاً في عمقه وأصالته، رغم امتثاله للمعايير العامة لإنتاج النص العلمي (Sokal et Bricmont 1997)؟ يرتبط هذا الاعتراض على حضور البعد اللغوي في عمليات إنتاج النص العلمي في العلوم الاجتماعية بتعدد المحولات الدلالية والمعجمية للنصوص، وصعوبة تحديد الباحث لأصالة وجدية إنتاجه المعرفي دون اعتراف المجتمع العلمي بذلك.

إن تزايد حدة النقاش حول الكتابة في العلوم الاجتماعية مرتبط أيضاً بتعدد أنواع الكتابة نفسها، إذ يمكن أن نميز بين أربعة أنماط رئيسية: «الكتابة التجريبية» «l'écriture expérimentale»، «الكتابة

عن إنتاج كتابات علمية «خالصة» تسهم في إعادة موقعة العلوم الاجتماعية ك«ثقافة ثالثة» بين العلوم الإنسانية (الأدب) والعلوم الحقة (Chateigner, 2009 : 114) وإحياء السؤال العلمي / اللساني بصور ابستيمولوجية جديدة.

«في ظل غياب اهتمام تاريخ العلوم بسؤال الكتابة، نجد أن دراسة المؤشرات البلاغية المنظمة أو المحركة للغة العالمية تطرح أكثر من علامة استفهام. إذا عدنا إلى طبيعة النصوص المنظمة للعلوم الحقة، نجد أن المختبرات والحواسيب هي معيار الفصل بين الكتابة، الإقناع وحتى الإغراء. إن وضع خط فاصل بين العلم واللاعلم ضرورة ملحة ومهمة صعبة في نفس الوقت، نظراً لتخفي هذه الحدود في أحضان رفقة مشكوك في أمرها، أو في العلاقة بين العالم والفيلسوف، الصحفي، الإيديولوجي. إن تطبيع الخطاب العلمي بأبعاد بلاغية يكون بمثابة أفول وعودة إلى فترة الغموض البدائية، وصولاً إلى فترة كان فيها العلم يوصم بشر الخرافة والميتافيزيقا» (, Coorebyter 1 : 1994).

إذا كان سؤال الكتابة لا يقتصر على السوسيوولوجيا لوحدها ويشمل معظم تخصصات العلوم الاجتماعية، فذلك راجع بالأساس إلى الطبيعة المركبة والانعكاسية لهذه التخصصات نفسها. لقد هيمنت محاولة القطيعة مع التخصصات الأدبية والرغبة في الاحتذاء بالأنموذج الابستيمولوجي للعلوم الحقة على التاريخ الطويل للعلوم الاجتماعية، الأمر الذي جعل كتابة البحوث توضع فوق طويلة النقاش وفق خلفيات ايديولوجية ومذهبية مختلفة: من أين يكسب النص مصداقيته؟ هل

الكتابة تخويفه، التهامه وكبح جماحه» (, Soudière)
5 : 1994).

بما أن «النشر» دلالة على «وجود أو فناء الباحث»، فإن الكتابة هي الشرط الموضوعي لبناء المسار الأكاديمي والحصول على اعتراف علمي داخل الجماعات العلمية: على الكفاءة، الذكاء والخضوع. إن الكتابة هي الجوهر الصامت للعلم كحرفة وللباحث كأكاديمي (مهنة).

في خضم البحث عن الموضوعية، يعيش الباحث معاناة متعددة الأبعاد. أولاً، الضرورة الموضوعية: إن الكتابة هي المجال الذي تسود فيه العلامات اللسنية، وتحل الـ«نحن» محل الـ«أنا»، تفرغ الموضوعات من تجسيدها الفعلي، وتصبح الجمل مبنية للمجهول، من أجل تجسيد الموضوعية المطلوبة والممايزة بين الأدب والعلم. يؤدي شرط الموضوعية إلى حذف الباحث وفقدان هويته أمام الـ«نحن»، بحثاً عن شرعية إبستيمولوجية لعمل الباحث من طرف المجموعات العلمية (, Charmillot 2010). وفقاً لهذه المؤشرات يصبح إنتاج النص العلمي في مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية جزءاً من النشاط العلمي/ الأكاديمي للجماعات العلمية، ويصبح شرط علمية نص الباحث هو الحصول على الاعتراف العلمي من طرف باحثين آخرين، الأمر الذي يجعل الصراع المستمر بين الذاتي والموضوعي محط معاناة مستمرة للباحث الاجتماعي متجسداً في جدلية اللسني والعلمي في الكتابة الاجتماعية.

التأويلية» «l'écriture interpretative»، الكتابة الحوارية «l'écriture dialogique»، «الكتابة التساوقية» (, CLIFFORD) «l'écriture polyphonique» (1983). اقترن ظهور النمط التجريبي بتطور تقنيات الملاحظة بالمشاركة «l'observation participant» في الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، في حين ارتبط النموذج التأويلي بتركيز الإثنوغرافيين على تأويل الثقافة بوصفها نصاً، بينما ظهر النمطين الآخرين عقب نهاية الحقبة الكولونيالية وما صاحبها من محاولات علمية لتصفية الإرث الاستعماري من الدراسات الاجتماعية والثقافية. في الحقيقة، يتم الاعتماد على مختلف هذه الأنماط في عمليات إنتاج النص العلمي، ليس كـ«خيار أسلوبية» فقط (, CLIFFORD 111: 1983) وإنما كرهان ايديولوجي أحياناً.

إن أسلوب النص هو نتيجة لموضوع البحث المختار، لخياراته النظرية ولنماذجه التأويلية، وسند أساسي للباحث من أجل بناء هويته وانتمائه إلى الجماعة المهنية والدفاع عن استراتيجياتها (, Balandier 1994: 28-29).

«إن القلق الدائم أمام صفحة بيضاء يصاحب الباحث طيلة مساره العلمي، إنه يكشف بشكل مبتذل عن شدة استثماره في نصوصه الخاصة وحدة القضايا الملازمة لكتابة العلوم الإنسانية. بانتظام، بعناد، لمدة خمس سنوات، عشرة أو عشرين سنة، يواصل تحرير مقالاته، أوراقه، كتبه وتقاريره البحثية، لكن دائماً ما يجد نفسه عالقاً، ومضطرباً. لا شيء يعمل: تواصل

ضمن النشاط العلمي الجماعي، من خلال قبول القيم المنظمة لإنتاج المعرفة - رغم عدم قبول أشكال المعرفة السائدة- وتجنب الاستسلام لهيمنة المصالح المهنية. إن فهم ودراسة الاستراتيجيات الخطابية للباحثين الاجتماعية، تقنياتهم المنهجية، نسق كتابتهم وآليات إنتاجها، تجعلنا نتجاوز الصورة التقليدية للعلاقة بين الشكل والأسلوب، وتكشف لنا عن طبيعة النقاشات المرتبطة بإعادة تعريف التخصصات والحقول المعرفية نفسها.

ثالثاً: الحوار بين الأدب والسوسيولوجيا:

السؤال اللسني في اللغة السوسيولوجية

اهتم كثير من الباحثين خلال العقد الأخير بإشكالية العلاقة بين السوسيولوجيا والأدب (, Baudorre Rabaté et Viart 2007 ; Guillemain 2006 ; Lassave 2002 ; Lahire 2005: 172-256) من خلال مدارس تأثير البعد اللسني على شروط إنتاج المعرفة السوسيولوجية. ساهم هذا النقاش المتزايد في تطوير قضايا جديدة للكتابة في علاقتها بإشكالات متعددة ومتداخلة التخصصات (العلم أم اللاعلم، التأويل أم التفسير...). لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأسئلة المعاصرة للكتابة في العلوم الاجتماعية قد تنامت منذ عقود طويلة في السياق التاريخي لنهاية الاستعمار وبروز موضوعات جديدة للبحث بأوروبا، وتحث تأثير تطور الفلسفة التفكيكية «philosophies déconstructionnistes» (CLIFFORD, 1983

تلقي الجماعة العلمية بثقلها الاستيمولوجي، الميتودولوجي وحتى الإيديولوجي على الباحث، لتصبح مصدر معاناته المستمرة في إطار البحث عن إيجاد موقعه داخل هذا المجتمع. إن هذه «الأنا العليا العلمية» تشكل في كثير من الأحيان عقبة موضوعية أمام تطوير الشروط العلمية والأكاديمية للكتابة في العلوم الاجتماعية من خلال التأثير على صورة الباحث نفسه داخل جماعة البحث:

«كل جزء من كتابتك يمكن استخدامه لإظهار أي نوع من السوسيولوجيين أو الأشخاص أنت عليه. تمثل الكتابة بالنسبة لي مخاطرة كبيرة، تجعلني أدرك أنني غير قادر على ممارسة السوسيولوجيا، وأعي أنني لست عالم اجتماع في آن واحد، وبالتالي كوني لست الشخص الذي أدعيه (...). إنني لا أسير على نفس القواعد ولا أمارس السوسيولوجيا بنفس الطريقة التي يمارسها زملائي ولا أملك نفس وجهات نظرهم التي من المرجح أنها تشق طريقها بشكل جيد (, Becker 124 : 2004).

بين الخوف والرغبة في التفكير تصبح الكتابة شرطاً موضوعياً لإنتاج علاقات القوة والهيمنة الأكاديمية داخل العالم الاجتماعي ومجالات إنتاج المعرفة والبحث العلمي. يمكن أن نعتبر الخوف من الكتابة اعترافاً ذاتياً - قبل أن يكون موضوعياً - بغياب نهج جاهز للكتابة أو على الأقل صعوبة إنتاج كتابة مجسدة لوقائع العالم الاجتماعي ومقبولة من طرف العالم الأكاديمي، بينما تظل الرغبة في التفكير تعبيراً عن إرادة موقعة الذات

يفرض ضرورة البحث المستمر عن نسق موضوعي يحكم طبيعة إنتاج اللغة والكتابة. لقد هيمن التيار الوضعي لعقود طويلة على نسق التفكير في الكتابة السوسولوجية في إطار السعي نحو علمية علمنة علمنة العلم الاجتماعي ونمذجته مع «الكتابة الحقة». لا يمكن اعتبار هذا الثقل الذي تفرضه اللغة في السوسولوجيا مرتبط بمشاكل الكتابة أو بالصعوبات اللسانية فقط، بقدر ما هو نتيجة لطبيعة الشروط الموضوعية لإنتاج المعرفة في حقل العلوم الاجتماعية. بالتالي، عدم تحديد هذه الشروط، ورسم أشكال معينة من العلاقات بين الاستيمولوجي والمنهجي وبين التخصصات الاجتماعية ينتج غموضاً في اللغة والكتابة، مما ينعكس سلباً على الحوار المتعدد الأبعاد بين الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

تسيطر «شرطة» اللغة في السوسولوجيا (كما يسميها جان كلود باسرون) (Passeron, 1991) على الكلمات وتدولاتها الميتودولوجية، وينطوي تحريم بعض الكلمات في الاستعمال السوسولوجي - سواء الأكاديمي أو التداولي - على حكم تاريخي بفساد جوهرها العلمي، والاستيمولوجي أو ضعف قوتها الدلالية والمعجمية (التقليد، البنية، الاغتراب...). للشرطة السوسولوجية أيضاً وظائف استيمولوجية حيوية ضمن نسق البناء المنهجي للعلم الاجتماعي، إذ ترصد الاستخدام والاستعمال العقلاني/ المنطقي للمفاهيم. في كلتا الحالتين لا يستند هذا التحكيم سوى على منطلقات «وهمية» تحكم عمليات تحديد الحقول

Borel, 1985 ; Adam, Zonabend, ; Jamin, (1990: 10 ; Kilani, Calame et Kilani, 1990).

«إن الكاتب يشغل وظيفة خاصة، فالكتابة بالنسبة له نشاط»، وفعل لازم وضروري. الكتاب أنفسهم رجال «متعدون» (transitifs): يضعون وسائل لحد القول (شهادة، شرح، تعليم). بالنسبة لهم، القول يدعم الفعل ولا يبينه. هنا يصبح اللسان نسقاً توالياً من مركب «فكري» (Barthes, 1960/1981: 148, 149, 151).

يمكن لسؤال الكتابة في السوسولوجيا أن يأخذ طابع مؤسستي أيضاً (Lourau, 1994: 157-166). لكن، مع الأسف، لا يعرض «النص المؤسستي» الحالي في العلوم الإنسانية سوى نتائج البحوث ويحمل آثار تداخل النصوص داخل الأوساط العلمية وبين التخصصات المعرفية (Jay, 1998: 120). يولد هذا الأمر مشكلة التمييز بين أنواع الكتابة (الكتابة الأكاديمية، الكتابة الذاتية، الكتابة الموجهة للعموم، الكتابة الإنشائية)، فصحيح أن النقد هو شرط إنتاج المؤلفات العلمية إلا أن المواجهة بين السؤال اللساني والسؤال العلمي تجعلنا أمام أسلوبين للكتابة: كتابة مناهضة للعلم (موجهة نحو إحياء نسق النص الأدبي ضمن العلوم الاجتماعية) وكتابة مناهضة للأدب (متسمة بالجفاف، الصمت والقطيعة مع صورة الذات في النص العلمي). وينطبق هذا الأمر على الجماعات العلمية كما على الباحثين أنفسهم.

إن إضفاء الطابع العلمي على العلوم الاجتماعية

إلى درجة التشكيك في علمية نسق هذه العلوم نفسها. من هذا المنطلق تعمل السوسولوجيا على الاستفادة - قدر الإمكان - من الأسلوب العلمي كما الأدبي: إن الأدب وسيلة للمعرفة، وليس مجرد تأثير أسلوبية أو استعاري، في ظل بحث العلوم الاجتماعية عن بناء خطاب علمي استناداً إلى المخيال والمنطق المجرّد الخالص.

كيف تُقدم المعرفة؟ كيف يمكن الحصول على الاعتراف الأكاديمي وبناء موقع علمي ضمن نسق الجماعات العلمية؟ وكيف يمكن جعل المعرفة المنتجة في متناول الجميع؟ انطلاقاً من هذه الإشكالات الثلاث يمكن أن نربط بين فعل الكتابة وإنتاج المنطق السوسولوجي. إن الكتابة تلعب دوراً جوهرياً في عملية تطوير التفكير العقلاني والعلمي، رغم اختلاف وتباين هذا الدور من مجال معرفي إلى آخر، الأمر الذي يجعلنا نميز بين أنماط مثالية للعلوم الطبيعية، الأدب والعلوم الاجتماعية (Achard, 1994: 155-166).

يتطلب القانون الفيزيائي أو النتائج التجريبية ضرورة صوغها بشكل مكتوب، بينما تغيب النتيجة والقانون في الأدب ويصبح النص موجوداً فقط في النص، أما العلوم الاجتماعية فإنها تحل مرتبة وسط بين الاثنين، فهي ليست نصية بحثية، والنتائج التي تشير إلى النص ليست تجريبية خالصة، نظراً لكون الفعل التفسيري هو الذي ينتج المعرفة السوسولوجية؛ حيث لا ينفصل تشيئ الاجتماعيات عن تخطيط النص.

الدلالية للمصطلحات والمفردات الصحيحة والعلاقات المثالية بين الأسماء والموضوعات (Passeron, 1991: 140).

أمام هذه الاستراتيجيات الابستمولوجية المنغلقة والمتأثرة بمنطق التخصص، يتم تغافل الاقتران النسقي بين إشكالين مركزيين: التكامل بين اللغة الأدبية واللغة العلمية، وكون المفاهيم هي الأساس الناظم للنظريات الاجتماعية المتغيرة زمكانياً. تفرز السيطرة الانعكاسية لنمذجة اللغة العلمية نسق آخر من الوهم الابستمولوجي المقترن بتحريم الاستعارات والمجازات في العلوم الاجتماعية. اليوم، من الضروري على العلوم الاجتماعية - أمام التداخل التخصصي للظواهر الاجتماعية والإنسانية - أن تحاول رسم معالم التكامل بين البنيات المجازية واللغة المجردة (الأدب - العلم) عبر نقد سيطرة الاستعارات الخالصة والمساءلة الانعكاسية للمنطق التناظري المقارن للسوسولوجيا الجديدة.

في مجال العلوم التجريبية (ويمكن أن نضيف حتى العلوم الصورية، بوصفها نموذج ابستمولوجي لباقي العلوم) يمكن للاستعارات والمجازات أن تكون مجرد صور دلالية بسيطة لنقل، توضيح أو اقتراح صيغ أو أفكار جزئية لا تؤثر بشكل أو بآخر على المنطق الناظم للكتابة العلمية. في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، حيث للاستعارات دور كبير في تشكيل الخطاب الدلالي، يصبح الغموض ملمحاً أساسياً لبناء الممكن المعرفي

رابعاً: نحو كتابة سوسيولوجية عربية ملتزمة: انصهار الأدبي في العلمي

لا تعكس الكتابة في السوسيولوجيا مادة موجودة بالفعل، لكنها تسعى نحو بناء الاتساق اللازم لهذا الوجود بين مكونات البحث الاجتماعي. فحينما نتحدث عن الكتابة السوسيولوجية فالأمر راجع إلى تعقد العالم الاجتماعي (بلغة بيير بورديو) (Bourdieu, 1987)، وإذا أردنا الحفاظ على العالم بكل تعقيداته وجب علينا، تجاوز النمط المبسط من الكتابة، واستخدام عبارات/ مصطلحات/ مفاهيم مفصلة في عملية إنتاج المتن السوسيولوجي، ولا يتأتى ذلك إلا بمسائلة السوسيولوجيا لذاتها باستمرار؛ وخصوصاً لعلاقتها بالأدب واللغة الأدبية.

رغم هذا التراكم النسبي الحاصل في الأدبيات الاستيمولوجية والسوسيولوجية المهمة بقضايا الكتابة في العلوم الاجتماعية في «المركز»، إلا أننا نجد «تخلفاً» كبيراً للهامش العربي عن مسار البحث والاهتمام بإشكالات تطوير العلوم الاجتماعية وطرائق كتابتها في إطار تجديد الحوار بين الثقافة الثالثة (العلوم الاجتماعية) والأدب المعاصر، وذلك نتيجة لضعف الاهتمام الأولي بتنمية الترجمة في العلوم الاجتماعية وربط جسور التواصل بين الجماعات العلمية والانزياح وراء نقاشات إيديولوجية لا تخدم الغرض السامي لتطوير علوم كونية.

لا زال هناك تقليد أكاديمي متوارث منذ عقود طويلة

بالجامعات العربية، يربط بين «التمكن من تقنيات وأساليب الكتابة في العلوم الاجتماعية»، وفرض «السلطة والاعتراف المهني والأكاديمي» للباحث؛ إلى درجة الحديث عن احتكار المدخلات والمخرجات الاستيمولوجية الناضجة لمبادئ الكتابة الاجتماعية - خصوصاً فيما يتعلق بكتابة وتحرير المقالات العلمية - في ظل ضعف الدورات التدريبية الجامعية للباحثين وحتى للأساتذة في مجال تقنيات الكتابة والتأليف.

بغض النظر عن الاختلافات الاستيمولوجية بين التيارات والاتجاهات السوسيولوجية الكبرى فيما يتعلق بالمبادئ الدقيقة للكتابة في العلوم الاجتماعية، إلا أن هناك إجماع على كون تعلم الكتابة لا يكون إلا «بالفعل» (Heslot, 35: 1980). لذلك سيكون من المثير للاهتمام، وبدل البحث عن صياغة قواعد ونظم معيارية في مجال الكتابة الاجتماعية أو الانخراط في نقاشات مفرغة من المعنى الاستيمولوجي، توسيع مساحة التفكير في الكتابة السوسيولوجية والأثر وبولوجية - على الرغم من الصعوبات المنهجية والمؤسسية المحتملة - من خلال ورشات ودورات تكوينية علمية وملتزمة تجمع باحثي المستقبل بأجيال الماضي.

في هذا السياق يمكن طرح العناصر التالية من أجل بناء إستراتيجية عربية مندمجة لانخراط العلوم الاجتماعية العربية في مسلسل تنمية الكتابة ضمن البراديغم الكوني:

- وضع «برامج عمل قومية»، قصيرة وبعيدة المدى،

تحدث عن ثلاثة تحديات تواجه السوسولوجيا الكونية. التحدي الأول هو أن يُؤلف علم الاجتماع من المجتمع، والثاني هو بناء علم الاجتماع في المجتمع، والدفاع عن الثالث هو بناء علم الاجتماع للمجتمع، والدفاع عن الكائن ذاته (المجتمع بالضرورة) الذي كان أساس علم الاجتماع الأصلي (Burawoy, 2015). أمام هذه التحديات يمكن فهم العلاقة الجدلية بين ضعف الانفتاح على التطورات الكونية في مجال الكتابة في العلوم الاجتماعية والأزمة التي تعاني منها العلوم الاجتماعية في العالم العربي (منهجية، نظرية وابستمولوجية) - بشكل عام - خلال العقدين الأخيرين، وغياب مشاريع علمية واضحة المعالم للجماعات العلمية الاجتماعية - على قلتها ونذرتها - تخدم رهان كونية السوسولوجيا والعلوم الاجتماعية الجديدة وتتجاوز الخطاب الأيديولوجي لتأسيس اجتماعيات عربية هامشية (في مقابل الاجتماعيات الغربية المركزية) تعرقل المسار العام لتطور العلم كإنتاج وحق إنساني.

يجوز الحديث عن أزمة مركبة تعيشها العلوم الاجتماعية العربية: أزمة هوية، أزمة ترجمة، أزمة كتابة، أزمة حوار بين العلوم....، تأتي كنتيجة لموقع ووضع العلوم الاجتماعية بالمجتمعات العربية من جهة، ومن جهة أخرى كامتداد لأزمات مماثلة بأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. بمعنى آخر، لا يمكن الحديث عن تنمية الاهتمام السياسي كما العلمي بالعلوم الاجتماعية دون الانخراط الجاد والملتزم في رهان التأسيس لاجتماعيات كونية تتجاوز الأبعاد الأيديولوجية لثقافة

من أجل مواكبة التحولات التي تعرفها العلوم الاجتماعية المعاصرة على المستوى العالمي؛

- العمل على دعم انخراط الدوريات العلمية الأكاديمية في مسلسل تنمية البحث العلمي في مجال الكتابة في العلوم الاجتماعية؛
- انفتاح المؤسسات والمراكز البحثية المتخصصة في مجال الفكر والثقافة العلمية على ترجمة الأعمال العالمية الرائدة في مجال الكتابة في العلوم الاجتماعية (المؤسسة والجديدة)؛
- خلق مختبرات جامعية وأكاديمية داخل أقسام العلوم الاجتماعية (السوسولوجيا، الأنثروبولوجيا...) مخصصة لتكوين الطلبة والتدريسيين في مجال «الكتابة في العلوم الاجتماعية»؛
- إدراج وحدات «الكتابة في العلوم الاجتماعية» بمختلف أسلاك التكوينات الجامعية، وتحقيق نسق حوار بين مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية؛
- وعي الباحثين والمختصين العرب في مجال العلوم الاجتماعية بأهمية سؤال الكتابة الاجتماعية من جهة، وبناء «جماعة علمية» عربية تعنى بشؤون وقضايا الكتابة في العلوم الاجتماعية من جهة أخرى.

خاتمة

سبق للرئيس السابق للجمعية الدولية للسوسولوجيا السيد «مايكل بورواي» (Michael Burawoy) أن

- BARTHES R., 1981. « Ecrivains et écrivains », in Essais critiques. Paris, Le Seuil [1960 in Arguments] : 147-154.
- Becker, Howard S. (2004) [1986]. Écrire les sciences sociale. Commencer et terminer son article. sathèseou son livre. Paris, Economica (Méthodes des sciences sociales), (éd. orig., Writing for Social Scientists. How to Start and Finish your Thesis, Book, or Article. Chicago, University of Chicago Press).
- Bourdieu Pierre, Choses dites. Paris, Minuit, 1987.
- Burawoy, Michael (2015) Facing an unequal world. Current Sociology, Vol. 63(1) 5-34.
- Charmillot, Maryvonne L'ÉCRITURE SCIENTIFIQUE EXISTE-T-ELLE ?, séminaire «Les aspects concrets de la thèse» le 5 nov.2010 à l'EHESS. <http://act.hypotheses.org/564>
- Chateigner Frédéric, « Écriture sociologique, satire et littérature. », Genèses 1/2009 (n° 74), p. 114-127.
- CLIFFORD J., 1983. « De l'autorité en ethnographie », in L'Ethnographie, t. LXXIX, 2 [1983, « On ethnographic Authority », in Representations, vol. 1, 2] : 87-118.
- Coorebyter Vincent (de), (dir.), Rhétoriques de la science, Paris, PUF, 1994

«التمايز العلمي» (ثقافات الهامش في مواجهة ثقافات المركز) وتخدم المنطلقات العالمية للتنمية العلمية في ظل الحديث عن إمكانية جعل العلم مدخلاً وقاطرة لا غنى عنها لتحقيق التنمية الشاملة.

المراجع

- Achard Pierre, (1994) L'écriture intermédiaire dans le processus de recherche en sciences sociales , Communications, 58, p. 149-156.
- ADAM J.-M., BOREL M.-J., CALAME C. & KILANI M. (éds), 1990. Le discours anthropologique. Paris, Méridiens Klincksieck.
- ADAM J.-M., BOREL M.-J., CALAME C. & KILANI M., 1990. « Anthropologie, épistémologie, sémiologie », in ADAM J.-M., BOREL M.-J., CALAME C. & KILANI M. (éds), Le discours anthropologique. Paris, Méridiens Klincksieck : 9-17.
- BALANDIER G., 1994. « L'effet d'écriture en anthropologie », in PERROT M. & SOUDIERE M. de la (éds), Communication, 58 (L'écriture des sciences de l'Homme) : 23-30.
- Baudorre, Philippe, Dominique Rabaté et Dominique Viart (éd.). 2007. Littérature et sociologie. Pessac, Presses universitaires de Bordeaux (Sémaphores).

- Lahire, Bernard. 2005. L'esprit sociologique. Paris. La Découverte (Textes à l'appui).
- Laplantine François, La description ethnographique. Paris. Nathan. 1996.
- Lassave Pierre (2002), Sciences sociales et littérature. Concurrence, complémentarité, interférences. Paris. PUF.
- Monique Jay, « Sur l'écriture en sciences humaines », Journal des anthropologues, 75 | 1998. 109-128.
- Passeron, Jean-Claude. 2006 [1991]. Le raisonnement sociologique. Un espace non poppérien de l'argumentation. Paris. Albin Michel (Bibliothèque de l'évolution de l'humanité), (1re éd., Paris. Nathan).
- Perrot, M., de la Soudière, M. (1994) « L'écriture des sciences de l'homme: enjeux », Communications, n° 58, 5-21.
- Sokal, A., Bricmont, J. (1997). Impostures intellectuelles. Paris : Odile Jacob.
- Veyne Paul, Comment on écrit l'histoire. Paris. Seuil. 1971.
- Vincent Dubois. L'écriture en sociologie: une question de méthode négligée. Transversale. 2005. 1, p. 208-217.
- COPANS J., 1993-1994. « Un manuel de savoir-dire plus qu'un manuel de savoir-faire », Journal des anthropologues, 535455 : 179-183.
- Guillemin, Alain (éd.), 2006. À la recherche du meilleur des mondes. Littérature et sciences sociales. Paris. L'Harmattan (Logiques sociales).
- HESLOT J., 1980. « La formation des chercheurs à l'expression scientifique écrite », in Langage et Société, suppl. au n° 12 : 3540.
- JAMIN J., 1985. « Le texte ethnographique. Argument », Etudes Rurales, 9798 (Le texte ethnographique) : 13-24.
- JAMIN J., ZONABEND F., 1985. « Avant-propos », Etudes Rurales, 9798 (Le texte ethnographique) : 9-12.
- KILANI M., 1990. « Les anthropologues et leur savoir : du terrain au texte », in ADAM J.-M., BOREL M.-J., CALAME C. & KILANI M. (éds), Le discours anthropologique. Paris. Méridiens Klincksieck.
- KILANI M., 1994. « Du terrain au texte. Sur l'écriture de l'anthropologie », in PERROT M. & SOUDIERE M., de la (éds), Communications, 58 (L'écriture des sciences de l'Homme) : 71109.

هوامش:

1 - حول هذه النقطة أنظر:

Veyne Paul , Comment on écrit l'histoire ,
Paris , Seuil , 1971.

2 - أنظر:

Laplantine François , La description
ethnographique , Paris , Nathan , 1996

3 - لازالت الجامعات العربية (أقسام العلوم
الاجتماعية بخاصة) تعاني من ضعف كبير في
التعاطي الأكاديمي مع ورشات الكتابة والدراسات
الابستمولوجية حول الكتابة في حقل العلوم
الاجتماعية (النموذج المغربي على سبيل المثال)،
الأمر الذي يجعل من التفاعل مع ما يكتب في
الموضوع داخل الجماعات العلمية الغربية، من
قبل الباحث العربي، أساس بناء التكوين الذاتي في
مجال الكتابة.